«حياة عابر»

بيير لوتي

وصفحة من حياته على شواطىء البوسفور

يوسف البيّ

قبلَ أن يحدر بيير لوتي، ذلك الكاتب الرقيق والشاعرُ الحسّاس، إلى ظلمة قبره بأيام، ويقف شبحُ الفنّ مكبراً فجيعةَ المثل الأعلى بكرت يراعه وتلاشي أنغامه . . انتشر في أندية باريس الأدبيّة كتابٌ أصفرُ اللون تبطّنتْ سطوره وحواشيه بأهواء هذا الفنّانِ العجيب وبذكريات لياليه الماضية

لقد كان بيير لوتي ضنيناً بهتك أسراره وإباحة تذكارات غرامه . وهكذا لم يودّع الحياة دون أن يُطلع هؤلاء المتقوّلينَ فيه شتّى الأخبار والأكاذيب عن مكنون قلبه، ذلك القلب الرقيق الموشّح بكلّ ما في الحياة من زهرات وحبّ وصبابة . . فنشر كتابهُ الأصفرَ اللون وأنغم كلّ كلمة من كلماته بمرارة روحه وضباب أحلامه

ولم تكنْ تلك الحرارة سوى عاطفة شجيّة محزنة تغلغلتْ في اعماق القلوب ولم تقوَ على محوها ظلماتُ القبور ونكباتُ الحياة !!

***

كلما تصفّحتُ هذا الكتاب وتكشّفتْ أسرارهُ الراعية بلذّة الهوى ومعانيه المرعة بنشوة الغرام، تضربني رعشةٌ روحيةٌ مجهولة فأستغرق في سباتٍ عميق بعيد القرار مستعيداً لتفكر احلامَ الماضي المبعثرة في وادي الحياة تبعثر الاوراق الواهية في فصل الخريف

وأروع ما في تلك الصفحات هو ذلك الوصف الساحر الفتّان والوجد الغائر المعصفر بصفرة الخيبة واليأس والحنين

فالشمس وقد آذنتْ بالرحيل غابتْ وراء حُجُبِ الابدية تاركةً على ثغر الافق المتورّد قبلةَ الوداع، كما تترك العابدة المفتونة لهاثَ صدرها على شفتيْ حبيبها

والمساءُ الصامت الحنون يحتضنُ الطبيعة ويسربلها بسكينة ساجية رائعة . .

والليلُ يمرّ في الحقول والاوديةِ منغّماً على مسامع الاشباح تذكارات الماضي الدفين . .

والنجوم تحدّق بلوعة وحزن وحيرة كأنها مواكبُ المآتم تبكي حولَ نعش الحبيب . .

وجداولُ الحسن والجمال تنسابُ بين الأودية والصخور موقّعةً على اوتار الدجى بلاياً روعها المفجوع وصدرها المكلوم

نعم .. الشمس ، والمساء ، والليل والنجوم والجداول ، وكلُّ ما يثير الروح بأنامل الشعور والاحساس .. يصفها بيير لوتي في كتابه اللطيف . وأنا عندما أُصغي الى موسيقى تلك العبارات والسطور التي أبدعتها ريشة الكاتب الفنّان ، يضربني ضبابٌ سحريٌّ غريب فأبيتُ في مخدعِ العاطفة كما تبيتُ الزهرةُ المقدّسة في ظلالِ الهياكلِ القديمة

***

وأتمّ الكتاب (حياة عابر) فما أروع هذه اللّمحة وما أشجاها ! !

لقد صرفَ الكاتبُ المبدع اوقاتاً عذاباً مُسكرة في ممارح الشرق وتنسّمَ من ربوعه وسروجه نسمةَ حبٍّ مبهمٍ استقرّت بينَ جوانح روحه . فكانَ كلما تنشق عبيرها ، وهو في باريس ، تفيضُ على عينيه دمعةٌ أجيجة محرقة وتُغشي في روعٍ يراعهِ اطيافَ الشوقِ والحنين

وإنّ مَنْ كانَ لهُ ماكانَ للكاتبِ الشعريِّ المطول من صفحات غراميّة رقيقة لا تُمحى آثارُها ولا تتبعثر رسومها على ضفاف البوسفور ، استكثرَ من تذكّرِ الماضي الحبيب الذي مضى ولن يعود . واستزادَ في بكاء تلك الليالي التي مرّتْ في ضوء القمر راقصةً على رنات المياه عندما يداعبها نسيمُ الليل بلمساتهِ ودغدغته

ولست أعلم كيفَ كان موقفُ البوسفور عندما عقل الموت ريشة بيير لوتي وعاث بنضرة فؤاده . فهل تألم الخليج الساحر الجميل لموت الصديق المخلص الوفي ، وتعلل الماء سلتاعاً ينعى الى الصخور والربى وفاة الكاتب الرسام الذي أحبّهُ حبًّا لا شكيكَ فيهِ ؟ من يدري . لقد تسامرا في الماضي كثيراً . وكانت لهما ساعات شفّها الوجد يشكواه ، ومواقف أضناها الهوى بأنينهِ وبلواه

لم يبق كاتب من عشاق الشرق ومحبّيه إلاّ كتب عن البوسفور واصفاً تلك الزهرة العلوية التي تهيمن على الخليج الجبّار . أما بيير لوتي فقد أبدع وأجاد في ما كتب ووصف ، ثم ترك عنهُ تذكارات عذبة تروي العاطفة وينذيها الشعور والاحساس

ولذلك تمنّى وهو يختم انفاسه الاخيرة تحت سماء باريس ويُودع حياته في قبضة الردى ، لو مشى أبناءُ البوسفور جميعهم وراء نعشهِ . وأوصى أن يفرشوا في تربة قبرهِ زهرةً من تلك الازاهير المتأرجة النابتة على ضفاف الخليج الذي كان يشكو اليهِ اسرار فؤاده وخبايا خياله

***

اما الصفحة التي أريد أن استشفها من حياة بيير لوتي على شواطىء البوسفور ولا استطيع لها

يسترقني من لاعجة وسباية ، فهي هذه المقاطع الرائعة في حلل وضاءة من الجمال . وحسبك أن تقرأها فتنخضل عينك بالدموع وتبعث في الروح ذكرى الامس الدفين

الصيف جميل في كل مكان لكنه في تركيا اكثر من جميل . هو حلم مجهول ينبعث من صدر الطبيعة فيغمر النفس بالشوق والحنين . . وفي ليلة من تلك الليالي الصافية البيض خرج لوتي يمرح على شواطىء البوسفور وينعم بمرأى ظله يلونه القمر بضوئه الفضي الخالب . وفيما هو يبث خادمه الامين (جميل) شعور روحه واحساسها لامسته اشباح خفية واحلام لذيذة

وظل يتذوق هذه الكأس المسكرة ويتمتع عينه بمنظر الامواج يزينها النور بأكاليل الفضة حتى ايقظه جميل قائلاً ان الاميرة النبيلة « د . . » ترغب في ان يسامرها ويسكب في فمها خمرة الحب والحياة . . وما هي الا برهة حتى اقلع العاشقان يداعبان بالحياة على ضوء القمر

مر زمن والاثنان يأنسان كل مساء الى تلك الاماكن الشعرية الهادئة ويودعان في الخضم اسرار قلبيهما . وفي ذات يوم علم والد الاميرة بحبها لذلك الفرنسي الانيق فأنذر ابنته بالرحيل عن البوسفور

وهكذا قضت الاقدار العاتية ان يفترق ذانك العاشقان فلا يلتقيان ابداً . وقد آلم هذا الافتراق الكاتب العاطفي ألماً عميقاً وجرحه في صميم قلبه . ثم اشتد عليه الغرام فكان يصرف ايامه وليالي دائماً في تلك الربوع المحتفظة بآثارها والشاهدة على ايامها الماضية

اثرت هذه الحادثة في نفس الخادم جميل فمضى يبحث عن حبيبة سيده الكاتب . وفي ذات يوم عاد حاملاً سفراً كتاباً جاء فيه ما معناه : ايها الحبيب

لا تغضب علي يا « بيير » ولا تنسب الي الخيانة . لقد فارقتك مرغمة ، وكان بودي ان ابقى قربك لاقاسمك لذة العيش وخمرة الحياة . . ولكن ما العمل ! بهذا حكمت الاقدار

اني ابكي الآن ايها الحبيب ، وفي دموعي حرارة لاظية تحرق فؤادي وتؤلمه . . اريد ان ابوح لك بغرامي . . وان عاشقة مثلي مولهة تفارق الحياة لاجل حبيبها لتستطيع الاعتراف بغرامها . . لقد احببتك حتى آخر ساعة من حياتي . . ابعث لك بخصلة من شعري لتذكرك بي كلما لج بك التذكار والحنين ! !

ويقص لوتي هذه الرواية بنغمة موجعة لا يمحوها الدهر . اما جميل فلم يكن خادماً بسيطاً لا شأن له ، بل كان اديباً ذكياً وافر العلم والتهذيب يدعى جميل بك [1] . وقد ركن الى هذه الحيلة ليقف على عبقرية الكاتب الحساس ويستلهم روحه المضمومة بالاسرار والتذكارات

وبقي امر جميل مكتوماً على بيير لوتي حتى اواخر ايامه . واعتقد ان من اطلعه على خبية جميل

(١) لي مذكرات جبران خليل جبران حدثت عن جميل بك . وقد كانا يتبادلان الرسائل . وهذه الرسائل تدل على ان جميل بك هو اديب لبناني مكتئم ! (المقتطف : يقول احد اصدقاء جبران ان لا علم له بمذكرات لجبران ولا يظن ان له مذكرات لهذا الحال لو خلا الكاتب هذا الامر)

بك هو شاعرنا الكبير جبران . وقد عثروا بين اوراق المابغة الفرنسي على كتاب لطيف . اليك بعضه:

«لقد عرفتك يا جميل خادماً وفيًّا وصديقاً مخلصاً تركتْ صداقتهُ في حواشي قلبي أثراً شيِّقاً. لكنَّك أسأتَ إليَّ كثيراً بما خلعتَ على شخصيتكَ من غموض واسرار . وعندما اذكر تلك الاوقات التي كنتُ آمرك فيها تتملكني مرارة قاسية مفعمة بالخجل

امَّا الاميرة الحبيبة التي عرفتها على شواطىء البوسفور فقد اذبل موتها ازاهير آمالي واحلامي وإني الآن ابكيها بلوعة وكآبة . ارجوك يا جميل ان تكتب إليَّ وتخبرني هل كان ذلك الخليج يحنُّ إليَّ ويذكر ايامي الماضية ؟ ؟

انَّ المنيَّة ترفرف حولي يا جميل . وعن قريب يجرِّدُ الموت أغصانَ احلامي المورقة ويعدُّني في ظلمة الضريح . فهل تبكيني يا جميل وتذكرني بكلمة عذبة رقيقة ؟ من يعلم . . . فالوداع يا صديق الامس . . »

***

فالدمعةُ البليلة التي تسكبها العين في ساعة اليأس والحنين . . والقُبلة المرة الدامية التي يطبعها العاشق على ضريح من يُحب . . والسرير الذي يحتفظ بنفحات حبيبة محَّتها الاقدار من الوجود.. والحسناء الراقصة على انَّات الرباب في ضوء القمر . . فالزفرة التي تطلقها الروح وقد فجعتْ بأعزِّ امانيها . . فالأملُ الخائب والرجاء المتلاشي . . والابتسامة الجافَّة على شفتين موردتين ! ! تلمسها كلها في كتابات بيير لوتي واقواله

اما اليوم فيرقد هذا الناسك الشعريُّ العجيب رقدتهُ الاخيرة في مقبرة من مقابر باريس . تكتنفهُ الاسرار بعد مماته كما اكتنفتهُ السآمة في حياته . فهل تأسو الطبيعة جراح وجدته

فيكفنهُ المساء بردائه
ويفرحهُ النسيم عند ما يهبُّ في الصباح
وتنعشه الزنابق عند ما يفوح عطرها
وتساهره اطياف الليل بعد ان يمانق الكرى ابناء الحياة
ويلبث الله في قلبهِ زهرةَ التعزية قبل مجيء الربيع وحلول ليالي الافراح ! من يدري . .

ان الشرق المتحفِّز الآن لتلمُّس المثل الاعلى في القلب والروح ، لفي حاجة عميقة الى أن يقرأ هذا الكاتب ويتفهَّم اسراره وحواشيه . وهذه القافلة الادبية السائرة الى الموت بخطى متناسقة خليقٌ بها ان تطلب الحياة في كتب بيير لوتي وروايته التي وشحها بحبِّ الشرق وغذَّاها بجماله

البرازيل يوسف البعيني